الفصل الثاني

علي بن يوسف

لم يكد يوسف بن تاشفين يلقى ربه حتى نودي بابنه علي، أبي الحسن في مراكش أميراً للمسلمين. دُعي لعلي في الصلاة في أنحاء إفريقية، بيد أن أهل فاس رفضوا طاعته، فسار إليهم في جيش ضخم وأرغمهم على مبايعته بالإمارة، وكان في ذلك الحين يناهز الثانية والعشرين، لكنه تميز بحب العدل وبالحكمة، وكان يجنح إلى استشارة أهل الرأي ممن هم أسنّ منه وأوفر خبرة بالأمور.

وكان عليٌّ وافر الجود، كثير العطاء فأحبه الناس والتفوا حوله، فلزم الوقار، وابتعد عن مواطن الصلف والكبرياء.

زار علي الأندلس عدة مرات ليتلقى البيعة في الجزيرة الخضراء، ولكي يقر القضاة والولاة على مناصبهم، ثم كان يعود إلى إفريقية.

ثم عهد إلى أخيه الأكبر تميم أبي الطاهر والي إشبيلية بقيادة جيش الزحف، فانطلق من غرناطة على رأس جيشه الضخم إلى حدود النصارى، وضرب الحصار على قلعة (إقليج) الحصينة، فانبرت له قوات التحالف

النصراني بالتصدي لجيشه، وعند الفجر هجم المسلمون على قوات الجيش النصراني، فارتدوا على أدبارهم، لكن اشتد ضغط المسلمين حتى سقط من النصارى عشرون ألفاً صرعى، كما لقي ولي عهد قشتالة مصرعه.

كانت هذه المعركة في التاسع والعشرين من شهر آذار سنة ١١٠٨ أعظم انتصار للمرابطين في أسبانيا على مدى تاريخهم.

بعد الانتصار العظيم على قوات النصارى المتحالفة في (إقليج) لم يتحقق لدولة المرابطين أي تقدم أو ازدهار، بل على العكس سارت تلك الدولة في طريق الانحدار وسقطت لأسباب كثيرة.

ولنرجع قليلاً إلى الأحداث مع ملوك الطوائف لنرى سبب نشأة هذه الممالك، فقد نشأ ملوك الطوائف بعد أن انتهى أمر الدولة الأموية بالأندلس، واستبد منصور الأندلس بالأمر -ونقصد به المنصور بن أبي عامر- وأسس دولة بني عامر، وحالف بربر صنهاجة واستعان بهم دون العرب، وثارت الفتنة وذهبت دولة بني عامر، ونهب الثوار دورهم وتولى بنو أمية الأمور من جديد، ثم وثب الأمراء والموالي والبربر على بني حمود، واستقل كل أمير بناحية وأسس إمارة.

وتولى أبو محمد جهور بن محمد بن جهور في قرطبة فانتهت دولة بني أمية في الأندلس، وولي بنو عباد إشبيلية وغربي الأندلس، واشتغل ملوك الطوائف بالتغلب بعضهم على بعض، ولجؤوا إلى النصارى يستعينون بهم ليُفْنِي بعضهم بعضاً، إلى أن وصل يوسف بن تاشفين وأقام في الأندلس دولته العظيمة.

لقد تكونت بعد المعارك الدامية أربع إمارات رئيسة في الأندلس هي:

* دولة بني حمود أو الأدارسة في غرناطة.
* دولة بني عباد في إشبيلية.
* دولة بني عامر في شرقي الأندلس، في بلنسية ومرسية.
* دولة بني ذي النون في طليطلة وأواسط الأندلس.

ولنعرض لهذه الدول بشيء من التوضيح.

أسس الأدارسة من أواخر القرن الثامن الميلادي دولة في المغرب، لكن سقطت دولتهم تحت هجمات دولة بني أمية في الأندلس والدولة العبيدية، لكن حين اضطربت الأندلس أوائل القرن الحادي عشر، ونشبت الحرب الأهلية قامت بعض الجماعات المتنافسة وقلدت علي بن حمود سليل

الأدارسة قيادة جيش إفريقية، ثم نادت به خليفة وحاكماً على الأندلس سنة ١٠١٥م.

ولما مات علي اختارات الرعية أخاه القاسم بن حمود محله، لكن قام صراع عنيف بين القاسم وبين ابن أخيه يحيى، فانفض عن القاسم أنصاره وانضموا إلى يحيى، ولم يلبث القاسم أن وقع في الأسر. لكن لم تصف الأمور ليحيى إذ سرعان ما ثار عليه والي إشبيلية ابن عباد، وقاتله فقتل يحيى سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م، فتولى أخوه إدريس شؤون الإمارة، وتلقب بالمتأيد بالله.

حسنت سيرة إدريس المتأيد، وأحبه الشعب لبره وإحسانه، كما أحبه العلماء والمثقفون لدعمه للثقافة والعلوم؛ لكن ثار عليه ابن عمه محمد بن القاسم بن حمود واستولى على الجزيرة، وأقام بها حكومة مستقلة؛ لكن ابني يحيى فرا من السجن بسبتة، ولما قُتل إدريس اصطرع ابنا يحيى على الملك مما دفع الحاجب نجا إلى الخلاص من الحسن بن يحيى وإلى أسر أخيه إدريس بن يحيى وانتزاع مالقة.

بادر محمد بن القاسم إلى الزحف إلى مالقة من إمارته بالجزيرة، وفي الحرب قتل الحاجب نجا، فأطلق الجنود سراح إدريس بن يحيى من مالقة ونصبوه أميراً سنة ١٠٥٣م.

لكن الفتن أودت بحياة إدريس، وما أسرع ما سقطت الدولة في براثن بني عباد أمراء إشبيلية سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م.

أما بنو عباد، فقد مرت بك جملة من أخبارهم، وكيف مات آخر أمرائهم المعتمد بن عباد في السجن على يدي يوسف بن تاشفين.

أما بنو ذي النون الذين سكنوا طليطلة، أقوى دول أواسط أسبانيا وشبه الجزيرة فقد حَكَم هذه الدولة أو الإمارة منهم إسماعيل بن عبدالرحمن بن عامر من بني ذي النون الذي أعلن نفسه أميراً عليها وتلقب بنصر الدولة الظافر سنة ١٠٣٦م، ولما دعاه أمير قرطبة جهور إلى طاعته سخر منه، فانطلق جهور واستولى على السهلة فاستغاث صاحبها هذيل بن رزين بإسماعيل فبادر بانتزاع السهلة وردها إلى ابن رزين.

ولما توفي جهور سنة ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م تولى ابنه الوليد الحكم، بيد أنه كان ضعيفاً، فعرض على إسماعيل وابن رزين الصلح لكنهما رفضا فسارع بإعداد العدة للقتال.

وهنا يتدخل فرديناند ملك قشتالة بغزو أراضي طليطلة، ويرغم ابن ذي النون على عقد الهدنة مع قرطبة.

وبقي الأمر على تلك الحال إلى أن استنجد الجميع بيوسف بن تاشفين.

بدأ انهيار المرابطين بعد وفاة ألفونسو المحارب، وفي سنة ١١٣٨م انطلق التحالف النصراني من جديد إلى قتال مسلمي الأندلس في شراسة وضراوة، وفي السنة التالية استطاعوا الاستيلاء على قلعة (أورية) من المسلمين، مفتاح ولاية طليطلة.

ثم كان الحصار لقلعة قورية في يونيو ١١٤٢م/ ٥٣٦هـ وسقوطها، وتعددت انتصارات النصارى على المسلمين، فاستولوا على كثير من الحصون قرب قرطبة، وهلك في الحرب واليا قرطبة وإشبيلية مع آلاف القتلى.

حاول سلطان المرابطين في إفريقية أن ينتقم من النصارى، فسارع بتعيين يحيى بن غانية والياً عاماً على أراضي المرابطين في الأندلس، وأمره بقتال جيوش التحالف النصراني، فاستطاع يحيى تحقيق نصر باهر قرب قلعة رباح وقتل قائد جيوش التحالف في الموقعة واسمه مونيو.

لكن يعود الفضل في سقوط دولة المرابطين إلى همة رجل يُدْعى أبا عبدالله بن تومرت.

فبعد أن تولى علي بن تاشفين الحكم ببضع سنين قصد أبو عبدالله بن تومرت إلى بلاد المغرب طلباً للعلم، وبعد أن حصد زاداً وفيراً من المعرفة انطلق إلى بغداد ليستمع إلى دروس حجة الإسلام أبي حامد الغزالي.

كان ابن تومرت من بلاد السوس، وكان معجباً بآراء الغزالي، وذهل ابن تومرت حين علم أن سلطان المرابطين علي بن تاشفين قد حرّم كتب حجة الإسلام بحجة أنه كافر، وأمر بأن تحرق تلك الكتب في أنحاء مملكة المرابطين الشاسعة.

لقد قصد ابن تومرت إلى بغداد ولقي الغزالي ذاته، وسأله الغزالي:

كيف استقبل أهل قرطبة كتابي إحياء علوم الدين؟

أجابه ابن تومرت بأن سلطان المرابطين قد أمر بإحراقه، حزن الغزالي حزناً شديداً، ودعا على علي بن تاشفين بذهاب ملكه بداً، فسأله ابن تومرت أن يدعو الله أن يكون ذلك على يديه.

ما كاد أبوعبدالله يعود إلى وطنه سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦م حتى بدأ يبث تعاليمه في مدن المغرب، وكان لحسن منطقه الفضل في التفاف الناس حوله يسمعون بشغف إلى مقالته، وبخاصة أولئك الكادحين الذين يلاقون الأمرين في تحصيل الرزق. لقد سرد على أسماعهم حكايات مهولة عن حالة المرح والترف التي غرق فيها بلاط علي بن يوسف بن تاشفين.

وسرعان ما وصل أمره إلى ولاة المدن التي يخطب فيها، وعدّه الولاة خطراً على النظام، لكنه أفلح في الفرار والتخفي، ولم يلبث أن وصل إلى

مراكش ذاتها وبصحبته فريق كبير من المريدين والأنصار، وكان أخلصهم إليه فتى بهي الطلعة اسمه عبدالمؤمن بن علي، وما إن رآه ابن تومرت حتى اتخذه وزيراً له، وقصد وإياه المسجد الجامع بمراكش عاصمة المرابطين، واعتلى المنبر وألقى خطبة عاصفة فسّر بها الآية الكريمة: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ**﴾ وكان الجمهور مفتوناً به، وحين نزل تلقفوه بالأحضان وحملوه على الأعناق.

ووصل السلطان علي، فنهض الكل لتحيته عدا أبي عبدالله، فإنه ظل ساكناً إلى أن انتهت الصلاة فذهب من فوره إلى السلطان وقال له:

عليك أن تغير المنكر وترفع الظلم ببلادك، فأنت المسؤول عن رعيتك أمام الله.

ذهل علي، لكنّ أبا عبدالله واصل يقول:

لست بطالب دنيا، ولا حاجة لي بها غير أني آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر.

كان على السلطان أن يأمر بالقبض على الداعية الجديد، لكنه آثر في البداية أن يسفّه آراءه ودعوته، فعقد له امتحاناً أمام العلماء، فأفتى العلماء بأن الداعية يطمح إلى إحداث البلبلة وإلى إثارة العامة، وأنه لابد من منعه من الاتصال بالناس.

لكن الوزير عثمان بن عمر رفض أن يعطي للداعية أهمية تذكر، وذكر أنه لا خوف منه على الدولة، فهو حقير وبلا حيثية.

وتم إبعاد الداعية عن مراكش، فانطلق إلى فاس فجمع الرجال وعبأ الآراء، وعاد إلى مراكش بعد سنوات، وقد أصبح صوته مدوياً في الميادين والأسواق.

بادر أبوعبدالله يحطم آلات الطرب، ويندد بالفسقة الفجرة، ولم يجد السلطان مندوحة من استدعائه وسؤاله فكرر مقالته السالفة: لست بطالب دنيا، إنني آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر.

وانتهى اللقاء بالتشديد من السلطان على الداعية بإبطال لقائه بالناس، ثم أمر بنفيه من مراكش.

وكان ذلك في صالح ابن تومرت الذي ابتنى له أنصاره كوخاً بين القبور قرب مراكش، وإذا بالناس تهوي إليه من كل صوب وتنضوي تحت لوائه، باذلة الأرواح والأنفس والأموال رخيصة في سبيل الدعوة.

صب الداعية جام غضبه على المرابطين ونعتهم بأشنع النعوت، وسرعان ما تلقب بالمهدي، وذاع صيته وكثر أنصاره، وقرر أنه لابد من جهاد المرابطين لتطهير المغرب منهم، هنا أمر السلطان علي بالقبض عليه وإعدامه، بيد أن أبا عبدالله أفلح في الفرار من مطارديه، وعاد إلى بلاد السوس بصحبة رهط

من أنصاره، وفي وطنه راح يحدث الشعب عن رسالته باعتباره المهدي المنتظر، ويطلب الثورة على المرابطين من الملاحدة.

بايع المهدي عشرة من خلصائه، بينهم عبدالمؤمن، تحت شجرة خرنوب، ثم بايعته القبائل، وأطلق على هذه الزمرة اسم الموحدين، وهم الذين اتحدوا على الإيمان بوحدة الله.

قسّم أبوعبدالله أتباعه إلى عشر طبقات في مقدمتها العشرة الذين بايعوه، ثم طبقة الخمسين، وطبقة السبعين، وطبقه العلماء، وطبقة الحفاظ إلخ.

أرسل سلطان المرابطين جيشاً للقضاء على الدعوة يقوده ابنه الأمير أبو بكر، لكن لسبب ما اضطر ذلك الجيش إلى الفرار، وانهزم شر هزيمة.

عمد المهدي إلى مدينة تيمال فاتخذها قاعدة له، وأرسل منها جيوشه إلى شتى ولايات المغرب تقتل وتسبي، ثم انطلق قائده أبو محمد البشير إلى مراكش على رأس جيش من أربعين ألف مقاتل فهزم جيش المرابطين وعدته مئة ألف.

وبدأ الموحدون حصار مراكش، لكن انهزم الموحدون وسقط قائدهم صريعاً وارتدوا نحو أغمات، وكان لعبدالمؤمن الفضل في سحب القوات بأدنى حد من الخسائر.

لكن بعد ثلاث سنوات من التأهب عاود الموحدون الكرة في الهجوم على عاصمة المرابطين، في جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، يقوده عبدالمومن. حقق الجيش نصراً عظيماً على قوات المرابطين وذلك في ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م.

ومات المهدي في شهر رمضان من السنة نفسها، فانتقل الحكم إلى صفيه المختار عبدالمؤمن.

إذ اختاره من بقي من جماعة العشرة وبقية الجماعات.

وسرعان ما لقبوه بأمير المؤمنين وبالخليفة، وتسمى بالأمير بأمر الله.

وانشق على المرابطين العديد من القبائل وانضووا تحت لوائه.

وقامت الثورات في أنحاء سلطنة المرابطين، وهزم عبدالمؤمن بجيشه تاشفين بن علي وجيشه هزيمة ساحقة، ولما خلف تاشفين أباه على عرش مراكش سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٣م، لم يستطع القضاء على الموحدين، فقد انقض بجيوشه على أعدائه فاضطر جيش المرابطين إلى أن يلوذ بالفرار، ولم يلبث الموحدون أن استولوا عنوة على وهران، ولما توفي تاشفين ابن علي نهاية سنة ٥٣٩هـ (آذار ١١٤٥م) بويع ابنه إبراهيم أبو إسحاق، لكن عمه إسحاق بن علي نازعه الحكم، وقامت حروب بين الرجلين، وسرعان ما ساعد الخلاف على زوال دولة المرابطين، فقد حاصر الموحدون مدينة فاس، واستولوا

عليها لمفارقة بعض أهلها لأميرها يحيى بن علي، مما اضطره إلى الفرار، وسرعان ما سقطت باقي المدن المغربية والأندلسية في أيدي الموحدين.

حاصر عبدالمؤمن مراكش وفتحها وأعدم إبراهيم بن تاشفين وقادة وزعماء المرابطين؛ وبذلك انتهت دولة المرابطين، وبزغ نجم دولة الموحدين.

obeikandl.com